



مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية

اسم المقال: الأدب الجغرافي عند ابن فضل الله العمري

اسم الكاتب: وطفه قطيمان، أ.د. محمود سالم محمد

رابط ثابت: <https://political-encyclopedia.org/index.php/library/2979>

تاريخ الاسترداد: 2026/05/13 02:52 +03

الموسوعة السياسية هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت. لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسية - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على

info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسية - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع <https://political-encyclopedia.org/terms-of-use>

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسية مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكرية ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينصوي المقال تحتها.



الأدب الجغرافي عند ابن فضل الله العمري

وظفه قطيمان¹، أ. د. محمود سالم محمد²

- 1 طالبة دكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق.
- 2 أستاذ دكتور في قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق.

الملخص:

كتب ابن فضل الله العمري القسم الجغرافي في مسالك الأبصار في ممالك الأمصار بأساليب متباينة، فنقل بعض النصوص عن أمهات الكتب نقلاً نصياً، وتصرف قليلاً في نقل بعضها الآخر، في حين كتب بعض المعلومات الجغرافية التي نقلها عن النقات، وعن شيوخه الذين برعوا فيها بلغة أدبية عالية، وبأسلوب سلسٍ قلما اعتاده الجغرافيون.

ويتمس القارئ للقسم الجغرافي من المسالك أنّ العمري بناه مستعرضاً معلوماته الجغرافية، وملكاته الأدبية التصويرية، وخيالاته المبتكرة، واستطاع أن ينقل المعلومات الجغرافية بدقة فائقة، وبأسلوب فني شائق.

واعتمدت هذه الدراسة في خطتها على المنهج الوصفي التحليلي، وسعت للإجابة عن تساؤلات تدور في ذهن القارئ، منها: هل طبع التأليف الجغرافي عند العمري بطابع أدبي؟ وهل استطاع العمري المحافظة على القيمة العلمية للنص عندما صاغه بأسلوب أدبي؟ وهل أضاف هذا العالم الأديب شيئاً ذا قيمة للجغرافية؟

وقد هدفت الدراسة إلى عرض بعض النصوص الجغرافية التي طبعت بطابع الأدب الرفيع، واستخراج ما فيها من صنوف البلاغة والبديع، وتحري القيمة العلمية فيها.

وانتهت الدراسة إلى بعض نتائج مبنية على ما جاء فيها، فوضحت كيف استطاع هذا العالم الجمع بين القيمتين النفعية والجمالية.

الكلمات المفتاحية: الأدب الجغرافي، ابن فضل الله العمري، العصر المملوكي، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار.



حقوق النشر: جامعة دمشق -
سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق
النشر بموجب الترخيص
CC BY-NC-SA 04

Geographical Literature in Ibn Fadlallah al-Umari's Work

Wafsa Kutaiman³ Pr. Mahmoud Mohammad⁴

3 PhD student, Department of Arabic Language, College of Arts and Humanities Damascus University

4 Assistant Professor, Department of Arabic Language, College of Arts and Humanities, Damascus University

Abstract:

This research studies the geographical literature in Ibn Fadlallah al-Umari's work as well as his geographical writing in Masalik Al Absar which is divided into two sections. The first section, where he talks about Masalik(earth, the seven climes,the seas, the qibla and the roads , is spanned across two volumes while the second section, in which he discusses Al-Mamalik(the kingdoms), is spanned across the third and fourth volumes.

The research studies the geographical texts written using literary style. It also examines the art of rhetoric and schemes and explains how al-Umari's managed to keep his writings informative and enjoyable utilizing elevated language. This style made him deserving of his title as a scientist and a writer.



Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a CC BY- NC-SA

Keywords: Geographical Literature, Ibn Fadlallah al-Umari's, Literary Geography, Literature, Geography

المقدمة:

لا شك في أنّ علماء الجغرافية قد اتخذوا الطرق التقليدية للتأليف الجغرافي بنقل مادته العلمية بلغة واضحة بسيطة بعيدة عن الخيال والصنعة، أما العمري¹ فقد كتب القسم الجغرافي في مسالك الأبصار بأساليب متباينة، فبنى بعض نصوصه بأسلوب واضح بسيط بعيد عن الصنعة، وكتب المعلومات الجغرافية التي جمعها واصطفاها بلغة عالية، فصب فيها مهاراته الأدبية، ولقّها بالصور الجمالية، والمحسّنات البديعية، وغير ذلك مما يلامس القلب قبل العقل.

وتقنن في كتابتها مستعيناً بذخيرته اللغوية الغزيرة، وبراعته التصويرية، وخياله الخصب، وصنع ما يسمى الجغرافية الأدبية. وقبل الولوج إلى دراسة الأدب الجغرافي عند العمري لابد من التعريف بالجغرافية الأدبية، والحديث عن نشأة علم المسالك والممالك؛ لنذكر ماهية الأدب الجغرافي عنده، ولنفهم آلية حفظ الجغرافية عبر قوالب أدبية نافعة ممتعة.

الجغرافية الأدبية: ظهرت الجغرافية الأدبية في القسم الثاني من القرن الثالث الهجري ومطلع القرن الرابع، بعد ازدهار حركة الترجمة، ونقل أمهات الكتب الجغرافية عن بطليموس وغيره، ولم تكن هنالك مصنفات جغرافية قائمة بكل معنى الكلمة، إنّما تآثرت بعض المعلومات الجغرافية ضمن كتب الأدب، ومع ظهور هذه الترجمات، وتداولها بدأت سلسلة الجغرافية العلمية بالظهور، وسرعان ما تبعتها أنماط متعددة للجغرافية الوصفية، وبلغ الأدب الجغرافي ذروته في القرن الرابع الهجري، وذلك إثر ظهور مؤلفات من نوع المسالك والممالك، ويمكننا القول: إنّ هذا القرن كان عصر تكامل الأنماط في المصنفات الجغرافية². ويرى أحد الباحثين أن علم المسالك والممالك قد نشأ في أوج ازدهار الخلافة العبّاسية، على يد عددٍ من المصنّفين وكتّاب الدواوين الذين كانت تتجمع بين أيديهم معطيات كثيرة عن الطرق والمسالك والخراج والواردات والنفقات، وأسماء المواضع، ويعدّ كتاب ابن خرداذبة³ "المسالك والممالك" الذي وضعه سنة 232هـ فاتحة هذا العلم، وقد كتبه بعد أن تولى البريد والأخبار في بلاد الجبل⁴ في عهد المعتمد العبّاسي، وتطور هذا العلم تطوراً مطّرداً، إلى أن بلغ ذروته في القرنين اللاحقين، ثمّ تطوّر في صدر العصر المملوكي على شكل موسوعات كوزموجرافية⁵ لعل أشهرها وأهمها موسوعة مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري، واختتمت بكتاب

1 - ابن فضل الله العمري: هو أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، يعود نسبه إلى عمر بن الخطّاب، كنيته: أبو العبّاس، لقبه: شهاب الدين، ولد في الثالث من شهر شوال، عام 700هـ، ونشأ في بيت من بيوت العرب المغرقة في الأدب؛ إذ عمل عدد كبير من ذويه في ديوان الإنشاء وكتابة السر في أزهى أيام الدولة المملوكية لأكثر من قرن من الزمن، ولا سيما أيام سلطنة آل قلاوون. أخذ عن كثير من الشيوخ والعلماء، ونظم كثيراً من الفصائد والأراجيز والمقطعات ودوبيت، وأنشأ كثيراً من التقاليد والمناسير والتواقيع والأصدة. كتب الإنشاء بدمشق، ثم ولي والده كتابة السر بدمشق، ثم طلب إلى مصر هو ووالده في سنة 728هـ، وباشر والده كتابة السر بمصر، ثم خرج مع أبيه إلى دمشق، ثم عاد إليها معه في سنة 733هـ، وأقام إلى بعض سنة 736هـ، وهو في المرتين الأولى والثانية يدخل يقرأ البريد على السلطان، وفي الثانية جلس في دار العدل ووالده القاضي محيي الدين كاتب السر. ومن آثاره المطبوعة: كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، كتاب التعريف بالمصطلح الشريف، كتاب عُرف التعريف في المكاتبات، كتاب ذهبيّة العُصر، كتاب الشتويات، كتاب الدرر الفرائد من غرر الغلائد، ومن آثاره التي لم تُطبّع: دعة الباكي ويقظة الساهر، المبكيات، الترسل في قواعد المكاتبات، فواضل السمر في فضائل آل عمر، صباية المشتاق، الدعوة المشتجّابة، سفرة السفرة، نُفحة الرّوض، الجواهر الملقّطة، تذكرة خاطر. توفي لما وقع الطاعون بدمشق سنة 749هـ. انظر: الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، 163/8-174 (1348)، فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي، 157/1 (60)، المنقّى الكبير، تقي الدين المقرئ، 732/1 (677)، المنهل الصافي والمنسوّفي بعد الوافي، يوسف بن تغري بردي، 262/2 (338)، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، 331/1 (828)، أعيان العُصر، صلاح الدين الصفدي، 418/1-419 (218).

2 - انظر: أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، د. عبد الرحمن حميدة، ص 59.

بطليموس القلّودي: إمام في الرياضيات، من علماء اليونان، وإليه انتهى علم حركات النجوم ومعرفة أسرار الفلك، وهو أول من عمل الإصطلاب الكروي والآلات النجومية وسطح الكرة والمقاييس وآلات الأرصاد، ومن كتبه "الجغرافيا"، و"المجسطي". إخبار العلماء بأخبار الحكماء، جمال الدين يوسف القفطي، ص 67-68.

3 - هو عبيد الله بن أحمد بن خرداذبة، أبو القاسم، كان مجوسياً أسلم على يدي البرامكة، ثم تولى البريد والخبر بنواحي الجبل، ونام المعتمد، وخص به، ومن تصانيفه: كتاب المسالك والممالك، كتاب أدب السماع، كتاب جمهرة الأنساب للفريسي، كتاب الأنواء، كتاب الندامي والجلساء. انظر: الوافي بالوفيات 229/19 (7447)، كشف الظنون، 1665/2.

4 - بلاد الجبل: والعامّة تسميها عراق العجم، ويحيط بها من جهة الغرب أذربيجان، ومن جهة الجنوب شيء من بلاد العراق وخوزستان، ومن جهة الشرق مفازة خراسان وپارس، ومن جهة الشمال بلاد النيلم وقزوين والري عند من يخرجهما عن بلاد الجبل ويضمهما إلى النيلم من حيث إن جبال النيلم تحفت بهما. انظر: صبح الأعشى، القلّشندي 366/4، الكتاب العزيزي (المسالك والممالك)، الحسن بن أحمد المهلب، 145-147.

5 - "رسم الدنيا: كوزموجرافيا، وصف عام للكون، علم يبحث في مظهر الكون وتركيبه." تكلمة المعاجم العربية، رينهارت دوزي، 137/5.

زبدة كشف الممالك في بيان الطرق والمسالك لخليل بن شاهين الظاهري (ت: 873هـ)¹، وبين كتاب ابن خردادبة وكتاب الظاهري ظهرت مؤلفات كثيرة تحمل الاسم نفسه، أي «المسالك والممالك» أو شيئاً قريباً منه.²

التأليف الجغرافي في مسالك الأبحار عالمياً بالجغرافية، غزير المعرفة بها، فقد عرّف مسالك الأرض وممالكها، وحنق في علم الإصطلاب، وحلّ التقويم³، ودرس على أيدي نخبة من العلماء الذين برزوا فيها كالعالمين شمس الدين الأصفهاني⁴، وابن الفركاح⁵.

وقد امتد التأليف الجغرافي عنده على أربعة مجلدات، وجعله على نوعين، الأول في ذكر المسالك، والثاني في ذكر الممالك.

النوع الأول: المسالك (المجلدان الأول والثاني):

جعله العمري في خمسة أبواب: الأول في مقدار الأرض وحاليها، الثاني في ذكر الأقاليم السبعة، الثالث في البحار وما يتعلّق بها، الرابع في القبلة والأدلة عليها، الخامس في ذكر الطرق:

* افتتح العمري الباب الأول معرفاً بالأرض فقال⁶: "الذي نبدأ به، بعون الله وقدرته، في القول في هذا الفصل، ما قام عليه البرهان، وهو أن العالم كروي، ويدل عليه المشاهدة بالعيان لمن رعى الشمس في مطلعها إلى مغيبها؛ وكذلك النجوم من مشارقها إلى مغاربها؛ لأنها تطلع حتى تتوسط السماء تقويساً، ثم تنحط حتى تغيب عن العين كذلك، فتقطع نصف دائرة، فعلم بالضرورة أنها تقطع في الغيوبة عن العين نصف دائرة، نظير ما قطعت في الظهور، ليكمل تمام الدائرة".

الطابع الجغرافي للنص: إذا تأملنا هذه المقدمة البسيطة بدا لنا أن العمري صاغها بلغة بسيطة سهلة واضحة، وبأسلوب علمي منطقي بعيد عن الصنعة، فبدأ بفرضية كروية الأرض، وقدم الأدلة والبراهين التي تؤيد صحتها وهي الحركة الدائرية للشمس والنجوم حولها، وخرج بنتيجة تعزز هذه الفرضية، وقد نمّ هذا الأسلوب على فكرٍ واعي، وعقل علمي دقيق ملمّ بالقضايا التي يناقشها.

الطابع الأدبي للنص: ولم تغب روح الأديب عن النص، فقد رسم صورة للمتأمل وهو يربى الشمس والنجوم وهي تطلع حتى تتوسط السماء تقويساً، ثم تنحط حتى تغيب عن العين، وبنى عباراته بأسلوب أدبي لطيف باين فيه بين حالي الشمس والنجوم بالمطابقة بين "مطلعها-مغيبها"، "مشارقها-مغاربها"، "تطلع-تغيب"، "الغيوبة-الظهور"، وبذلك يكون العمري قد كتب بعض نصوص الجغرافية بلغة أدبية لطيفة بعيدة عن الجفاف.

¹ - هو عرس الدين الشيعي، شيخ الصوفي الظاهري برقوق، ويعرف بابن شاهين، من أمراء المماليك في مصر، حفظ القرآن واشتغل ونظم فأكثر، كان محمود السيرة، وله تصانيف كثيرة في الفقه والتفسير والتعبير والتاريخ والإنشاء وغيرها، منها المواهب في اختلاف المذاهب، والمنيف في الإنشاء الشريف، زبدة كشف الممالك، في بيان الطرق والمسالك في فضائل مصر، وأعمالها، وتعظيم سلطانها، وأمرائها، توفي عام 873هـ. انظر: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين السخاوي، 197-195/3 (748)، كشف الظنون، 953/2.

² - انظر: المسالك والممالك، ص5-6 (المقدمة).

³ - المقفى الكبير 733/1.

⁴ - هو محمود بن عبد الرحمن بن أحمد (ت: 749هـ): قدوة العلماء والحكماء والفقهاء والفقراء، ومفسر عالم بالعقليات، قصّ على ابن فضل الله تاريخ المغول وأخبار بغداد، وقرأ عليه الأصول. انظر: مسالك الأبحار في ممالك الأمصار 132/9-142/38، أعيان العصر 418/1، الوافي بالوفيات 164/8، قيل إنه تخيل وجود أمريكا بالاستدلال العقلي والمنطقي، وقد نقل عنه العمري أقوالاً كثيرة في المسالك، كقوله: "لا أمنع أن يكون ما انكشفت عنه الماء من الأرض من جهتنا، منكشفاً من الجهة الأخرى، وإذا لم أمنع أن يكون منكشفاً من تلك الجهة، لا أمنع أن يكون به من الخيوان والتبئات والمعادن مثل ما عندنا، أو من أنواع وأجناس أخرى". مسالك الأبحار 134/1، وبذلك يكون الشيخ قد سبق كريستوف كولومبس بقرابة قرن ونصف إلى اكتشافه الذي ادعاه. انظر: المصدر نفسه (الحاشية).

⁵ - هو برهان الدين، إيزاهيم بن عبد الرحمن الفراري (ت: 729هـ): الشيخ الإمام شيخ الشافعية أبو إسحاق الفراري الصعدي الأصل، اليمشقي مدرس البادرانية وابن مدرستها، برع في الفقه، وتفنن وجوّد الكتابة. انظر: الوافي بالوفيات 31-30/6 (127)، و164/8، مسالك الأبحار 242/6-244/51، وقد صنع مصنفين جغرافيين شهيرين دون فيهما معلومات قيمة عن جغرافيا الشام وفلسطين، وهما الإعلام بفضائل الشام، وبعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس. انظر: كشف الظنون، مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة، 127/1، و218/1.

⁶ - مسالك الأبحار 122/1.

* وقال العمري في حديثه عن الأنهار¹: "ومن ذلك نهر النيل، وهو النهر الأعظم الذي لا يعدله في عظيم نفعه شيء؛ لعظم ما عليه من البلاد، وطوله في الأمم، وهو ينصب من جبل القمر، وقد قدمنا عند ذكر الجبال طرفاً فيه، وإن كان لا مقال يوفيه؛ لأنه إحدى الكبر، وأولى العبر، آية من آيات الله في أرضه، وعجيبه لمن تأمل من خلقه، ساقه الله تعالى إلى مصر، وأحيا به بلدة ميتاً، وسقاه أمة عظمت، وإن لم تكن هي المتفردة بنفعه، فإنها كالمتردة به؛ لعظيم منفعتها منه، وعميم مصلحتها به، يجيء إليها أحوح ما كانت إلى مجيئه، وينصرف أحوح ما كانت إلى انصرافه، ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾²، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾³."

الطابع الجغرافي للنص: تكلم العمري على نهر النيل كأبي جغرافي آخر، فذكر جانباً من عظمتها ومنافعه، وتحدث عن انصبابه من جبل القمر، ووصف طوله العظيم، وعدّ المنافع الكبيرة التي تتألفها مصر بمروره فيها، وخروجه منها. الطابع الأدبي للنص: إلا أن العمري لم يصغ نصّه كما تصاغ النصوص الجغرافية عادة، بل كتبه بلغة أدبية عالية، وبأسلوب بلاغيّ بديع، فحافظ على شرف المعلومة، وجمال العبارات التي حملتها، وشحن النص بعاطفة الحب القوية، فهو عاشق مصر، وحب النيل يسري في عروقه؛ إذ قضى حياته متنقلاً بين دمشق ومصر:

وقد بنى نصه بأسلوب أدبيّ مسجوع، ولقّه بطيف من ألوان البلاغة والبديع، فجانس بين "فيه-يوفيه"، "الكبر-العبر"، "عظيم-عميم"، وقابل بين العبارتين: "يجيء إليها أحوح ما كانت إلى مجيئه-ينصرف أحوح ما كانت إلى انصرافه".

وأكرم النيل -الذي يُحبُّ- بالنصوص القرآنية الكريمة تلميحاً، وتصريحاً، فاقتبس عبارته: "ساقه الله تعالى إلى مصر، وأحيا به بلدة ميتاً" من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾⁴، كما ضمن نصّه بآيتين كريمتين، محافظاً على بنيتهما ومعناهما الشريف؛ ليرتقي ببلاغة نصه وقوته الحجاجية.

* وافتتح العمري الباب الثالث بالحديث عن البحار فقال⁵: "اعلم أن البحر هو العنصر الأعظم، والمخلوق الأكبر، والعجب العجيب، والمألوف الغريب، وجميع العالم في دائرته، وعلى بعض ما انكشف عنه. وفيه أوضح الدلالات على قدرة خالقه، وعظيم خلقه، وبديع صنعه، وقد ذكره الله عز وجل في غير موضع من القرآن الكريم، كلها في مقام التعظيم له، وضرب المثل به كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾⁶، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٍ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾⁷، فلو لم يكن البحر الغاية في العظمة، وأنه لا يتخيل أحد أنه ينفد لما ضرب المثل به وأنه ينفد ولا تنفذ كلماته ولو جيء بمثله مدداً. وفي الآية الثانية مبالغة؛ أي إنه لو أن هذا البحر -وهو هذا العظيم في أذهانكم، الكبير في صدوركم- ومثله سبعة أبحر تمده لنفد وما نفذت كلمات الله، وهذا غاية في تعظيمه، لأن الكلام صفة المتكلم، وكلام الله صفة من صفات الله، لا يتناهى، ومثله بأكثر ما هو مستقر في صدور بني آدم أنه لا يتناهى. ومن تأمل هذا بعين التحقيق وقف منه على لطيفة لا يمكن التعبير عنها في تعظيم خلق البحر، وهو على ما في ركوبه من الخطر العظيم والضرر الكبير يفيد الأموال الجمّة، والنعم الضخمة، ويخرج اللؤلؤ، ويقذف العنبر، وينقد الذهب... وأي مكان بُعد عن البحر الملح أربعة عشر يوماً لا يمكن سكنه لإفراطه في الوخامة، وسوء الأبخرة، إذ كان الملح ملطفاً للهواء، ومفتحاً للسدد؛ ولهذا يعرض لمن بُعد عن البحر تولد البرودة القاتلة؛ لغلظ جوهر الهواء وضعفه عن التحليل. وما ذكر البحر في موضع من القرآن الكريم، ولا مكان من الحديث النبوي -على قائله أفضل الصلاة والسلام- إلا في موضع التعظيم، وقد منّ الله به على خلقه،

¹ - مسالك الأبصار 156/1.

² - سورة يس، الآية 38.

³ - سورة الحديد، الآية 21.

⁴ - سورة فاطر، الآية 9.

⁵ - مسالك الأبصار 165/2-167.

⁶ - سورة الكهف، الآية 109.

⁷ سورة لقمان، الآية 27.

وسخَّره للعباد، وسجَّره¹ عن البلاد، وجعله آية لمعتبر، وغاية لمفكر، وهو أحد السبيلين، ومكاسبه أوفر من البر، وريحه أعظم بما لا يقاس، ولا يدخل في حد قياس. والتجار تقول البحر يعطي جزافاً²، ويأخذ جزافاً، وفي البحر خزائن الرزق، ووجوه المنافع، وقد خلقه الله فأبدع خلقه، وشقق به أقطار الأرض؛ لما اقتضته دقائق الحكمة لحمل الأثقال، وركوب الرفقة الكثيرة إلى الأماكن البعيدة، والبلاد الشاسعة، وقد كرم الله بني آدم بركوبه وحملهم عليه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾³، فسبحان من خلقه وأبدعه، وأتقن منه ما صنعه، وبث فيه أنواع الحيوان وأصناف الدواب، وصرف فيه نوع الإنسان ودلل لهم مناكبه، وسهل مذاهبه، ويسر لهم مراكبه، ويسر راكبه فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِيَتَّجِرَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁴، وقد جعل منه رزقاً طيباً، وملبساً فاخراً، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ جَلِيَّةً تَلْبَسُوهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁵، وألقى في الأرض رواسي أن تُميدَ بكم وأنهاراً وسبلاً لعلَّكم تهتدون⁶، وجعل أعلامها يهتدى بها في ظلماتها ويعرف بها مواضع جهاتها وقال تعالى وقد ذكر البحرين والشروب والمالح وما للناس فيهما من عموم المصالح فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلَّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ جَلِيَّةً تَلْبَسُوهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁶، ومن أمعن التفكير في هذه الآيات عرف ما جعل الله في البحر من ضروب المنافع وأشتات المصالح، وهو الآية الكبرى لمن عرف عميم نفعه وعظيم قدرة الله في تسخيريه، وجليل صنعه. والبحر تختلف أحواله وأحوال الراكب عليه، فيكون مرة هادياً مطواعاً، ومرة هائجاً ممتنعاً، ومرة موافقاً ممكناً، فإذا كان هادياً مطواعاً -وهو أجود أحواله، وأحسن أوصافه، ولا يكون ذلك غالباً إلا في الفصل المناسب، والريح الموافق- وذلك الوقت يتصرف راكبه كيف أراد، ويحطُّ على حسب اختياره، وإذا كان هكذا كان أسهل من البر، وأقل مشقة وأخف كلفة وأجمع شملاً للمسافر ومتاعه وأتباعه وغلمانه وسائر ما يكون معه. وهو مقيم سائر، وحالٌّ طاعن، كأنه وسط داره على فراشه، متمرفقاً على وسادته، بين أهله وأولاده وغلمانه، ومعه زاده وماؤه، وطعامه يُطبخ له بكرة وعشاء، يُغذى عليه ويُراح بما يريد... هذا كله والريح مطواع، والبحر متابع والأمواج قد ألقَّت ما فيها وتخلت...وجرت الرياح بما تشتهي سفنه، وتنتهي معه كيفما امتد رسنه⁷.

الطابع الجغرافي للنص: استهلَّ العمري حديثه الجغرافي عن البحر بوصف عظمته وغرابته بين الأماكن الجغرافية، كما وصف اتساعه وامتداده على رقعة كبيرة من الأرض، وبين تجلي قدرة الخالق، ودقيق صنعه في هذا المخلوق، ثم سرد جملة من منفعه للناس، فهم يركبونه قاطعين البلاد، باحثين عن خيرات الله، ويستخرجون منه المجوهرات الثمينة، والأطعمة الفاخرة. وشرع العمري بعد ذلك يذكر فضل البحر الملح في تطيف الهواء، وفتح السُدود، وهو أحد السبيلين في التنقل، ومصدر رزق كبير للتجار، فقد شقَّ الله تعالى به أقطار الأرض، وحمل على ظهره الرفقة والأثقال، وحوى في بطنه شتى أنواع الحيوان وأصناف الدواب. ثم تكلم العمري على أحوال البحر ما بين الهدوء والهيجان، وذكر حال المسافرين فيه، والفصول المواتية للإبحار فيه، وأحواله مع الريح، وبين فضل السفر فيه على البر.

الطابع الأدبي للنص: بنى العمري نصه الجغرافي بأسلوب مسجوع، ولقَّه بطيفٍ واسع من ألوان البلاغة والبديع، فجانس بين كلماته، واستخدم الطباق لإبراز التباين بين أحواله، وأكثر من الاقتباسات القرآنية لتعزيز قدرته الحجاجية على إثبات صحة أفكاره، كما ضمَّنه الأبيات الشعرية الشهيرة:

1 - "سجَّره ملاء". لسان العرب، ابن منظور، مادة (سجر).

2 - "الجزف: الأخذ بالكثرة...جزافاً: بغير كيل". المصدر نفسه، مادة (جزف).

3 - سورة الإسراء، الآية 70.

4 - سورة الجاثية، الآية 12.

5 - سورة النحل، الأيتان 14 و15.

6 - سورة فاطر، الآية 12.

7 - "الرسن: الحبل". لسان العرب، مادة (رسن).

الطابع الأدبي للنص: ترجم العمري للكعبة المشرفة ترجمة أدبية دينية مسجوعة، وجانس بين الكلمات، واقتبس من أي الذكر الحكيم ما عطر به نصه، فبدا النص وكأنه عقد لآلئ انفرط، فكل لؤلؤة منه مقبوسة من آية كريمة: -فقد اقتبس عبارة "البيت الحرام أول بيت وضع للناس" من قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِنَاءَ﴾ سورة آل عمران، الآية 96. -ولمَّح عبارته: "ورُفِعَ على قديم الأساس" إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ سورة البقرة، الآية 127. -واقتبس عبارة "وأذن إبراهيم صلوات الله عليه-إليه بالحج ودعا إليه الناس فأتوه من كل فج" من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَاأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ سورة الحج، الآيتان 26-27. -واقتبس عبارته "من دخله كان آمناً" من قوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ سورة آل عمران، الآية 97. -واقتبس قوله "يمين الله في أرضه" من قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الرُّكْنَ يَمِينُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ﴾¹. -وجانس العمري بين كثير من كلماته مثل "ناس-أساس"، "معمور-أمور"، "حج-فج"، "شعائر-مشاعر"، "محجوج-محبوب"، "دعاء-دماء".

-وطابق بين "الجاهلية-الإسلام"، وكئى بقوله "حرم من حيث بنيت الأعلام" عن أزلية تحريمه، فالأعلام قد وجدت منذ وجدت الأرض، وكئى بقوله "المقصود بالزيارة قصد الوجوب" عن وجوب الحج على من استطاع إليه سبيلاً، وكئى بالعبارات الأخيرة عن استجابة الدعاء فيه، وحرمة الدماء في أرضه.

* وبعد أن فرغ العمري من الحديث عن المزارات والآثار المشهورة شرع في الحديث عن الديارات، فترجم لأديرة كثيرة منها: دير شقّ مَعْلُولاً²: "وهو بباطن جُبة عسال، وهو بناء روميّ بالحجر الأبيض، مُعَلَّقٌ بِسُقَيْفٍ، وبها صُدع فيه ماء ينقط، نحو الذي بصيد نايا، ويأخذه النصارى للتبرك، معتقدين فيه نحو اعتقادهم في الآخر، وإنما الاسم للذي بصيد نايا". الدير الأبيض³: "بنيّ بالحجر الأبيض، ورُيِّتَ في أبنيته، ووُسِّعَ في قدر أفنيته، وهو غربي النيل... يتضاحك في جنباته النُّور، وتخصُّرُ فيه شقاق الزروع، وتكثر فيه مصائد الطير، ويكون من الحسن في غاية تملأ البصر، وتزيد على الخبر. ومررنا به صحبة السلطان، ونزلنا على تلك الرابية، وأشرفْتُ على البركة وفيها قارب يصاد فيه السمك، ومَرَّتْ الأَطْلَابُ مُزَيَّنَةٌ الترك⁴، وحياد الخيل، فسُئِلت أن أعمل في مثل هذا شيئاً، على رسم ما يقال في الديارات. فقلت: [من الرجز]

يَوْمَ لَنَا بِالْدَّيْرِ، دِيرَ الْأَبْيَضِ
قَد انْقَضَى وَطَيْبُهُ لَمْ يَنْقُضِ
قَد جُنْتُهُ فِي الْعَسْكَرِ الْمَنْصُورِ
فَعَلَّقَ الْأَبْوَابَ كَالْمَحْضُورِ".

الطابع الجغرافي للنص: تحدث العمري بداية عن دير شق معلولا، فنكر موقعه الجغرافي، ووصف شكله ولونه، وطرأه المعماري، وتحدث عن مكانته الدينية، ثم تحدّث عن الدير الأبيض، فوصف شكله المعماري، ولونه، وأفنيته المتسعة، وموقعه الجغرافي غربي النيل، والزروع التي تحف به من كل جانب، وذكر قصة جرت له، وأشعاراً قالها فيه.

الطابع الأدبي للنص: بنى العمري نصه الأول بلغة علمية جافة، فسرد ما يعرفه عنه مقتضباً ما أمكن شأنه شأن أي جغرافي آخر، في حين تحدث عن الدير الأبيض بأسلوب مسجوع، ولغة أدبية عالية، ووشى كلامه ببعض البديع والتصوير، فوصفه وصفاً دقيقاً،

¹ - أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، مجد بن العباس المكي الفاكهاني، 271/2.

² - مسالك الأبصار 386/1.

³ - مسالك الأبصار 397/1-403.

⁴ - "أتخيل أن الناسخ غير كلمة البرك -لأنه لم يفهمها- بكلمة الترك، والبرك كلمة تركية كانت فاشية الاستعمال بمصر، على عهد المماليك، ومعناها السلاح...ويكون المعنى أن الأطلاب مرت مزينة أسلحتها وخيلها الجيدة، والطلب، بضم الطاء جماعة من الجنود يكونون في خدمة الأمير." مسالك الأبصار (أحمد زكي باشا) 1/16 بعد ص 398(تصويبات الجزء الأول في آخر السفر).

وصوره أبهى تصوير، وتحدث عنه حديث العاشق الخبير، وأنشد أبياتاً كثيرة من الشعر الذي نظم فيه، امتدت على عدة صفحات، ونُظمت على عدة بحور¹.

وبذلك يكون العمري قد قدم لنا معلومات جغرافية نافعة بأساليب متباينة، فبنى بعضها باللغة الجغرافية السائدة، وبنى بعضها الآخر بلغة أدبية عالية، وأثراها بالأبيات الشعرية.

النوع الثاني: الممالك (المجلدان الثالث والرابع) جعله العمري في خمسة عشر باباً، وتحدث في كل باب عن مملكة منهم، وهم على التوالي: مملكة الهند والسند، ممالك بيت جنكيز خان، مملكة الجبل، مملكة الجبال، مملكة الأتراك بالروم، مملكة مصر والشام والحجاز، مملكة اليمن، ممالك المسلمين بالحشمة، ممالك مسلمي السودان، مملكة مالي وما معها، مملكة جبال البربر، مملكة إفريقية، مملكة بر العدة، مملكة الأندلس، العرب الموجودون في زمن العمري وأماكنهم.

*تحدث العمري في الباب الخامس عن مملكة الأتراك بالروم، فأفتتح كلامه بمقدمة أدبية بلاغية، قال فيها²: "أما السماء الآن بمملكة الروم فقد كانت مملكة لا تُرْم، ولا يُحلقُ إليها مَرَامٌ، وهي مما هو من الخليج القسطنطيني ممتداً على جنوب بحر نيّطش³، وماء نيّطش محجوزة بجبال يزل الطُرف عن سهواتها، ويخل الطُرف⁴ بعوائدها في اقتحام حجراتها، وكانت آخر وقت -زمان بقايا بني سلجوق- معدن الخيرة والخير، ومسلك مسكن الملك، صاحب القبة والطير⁵، وكان لسلطانها من إرث آبائه حرمة محفوظة، ونعمة على معاطف الملوك ملحوظة، وقد تقدم في هذا الكتاب ما ينبه على ما لهذه البلاد في المجد من الطارف والتلاد.

كانت على عهد الروم -الباقي عليها نعمتهم إلى الآن- محتك⁶ الأعنة، ومشتبك الأسنة، دار القياصرة، ومكسر الأكاسرة، وكان لملكها الرتبة العلياء، وكانت بقسمة التعديل ثلث الدنيا، لأنه لم يكن يسمى من ملوك الأرض إلا ملوك الفرس والروم والترک... فالروم لهم الثلث وهم أهل التثليث⁷، وهذا الذي نحن في ذكره الآن مما وقع في قسمهم، وطبع إلى وقتنا بطبائع اسمهم، هو الواقع على شرقي الخليج القسطنطيني متصلاً بأرمينية وديار العرب والعواصم والشام.

وهو أثرى الممالك بلا احتشام، خلا أنه بكثرة الثلوج كالح الوجه في شبابه، أشيب اللمة⁸ في قبابه، لا يستسقي له محب لا تراك⁹ ولا يسام¹⁰، ولا بارق فيه لعارضة برق ولا يشام¹¹، إلا أن صخوره تتفجر ماءً وتنبخر أنواءً، تعقد دون السماء سماء، فتخصب زرعها، ويخطم¹² المحل ضرعها، ويخصف ورق الجنة على الحدائق ثمرها وينعها، وتطرب ورقها¹³ لمنظرها البديع، ومحبرها¹⁴ من صناعة صنعاء الربيع، فلا تسمع إلا كل مطربة تناجي النجي¹⁵ وتشجي الشجي، وتخلب قلب الخلي، وتهب الغواني ما في

1 - فقد ترجم العمري للدير بنصف صفحة، في حين شغلت الأبيات التي نظمها بقية الصفحات. انظر: مسالك الأبصار 397/1-403.

2 - مسالك الأبصار 213/3-214.

3 - ورد ذكره في بعض المصادر باسم: "بُخْرُ بِنُطُس" وهو في وسط المعمورة بأرض الصقالبة والروس. معجم البلدان، ياقوت الحموي 342/1.

4 - "الطُرف: الفرس الكريم الأطراف؛ يعني الآباء والأمهات". لسان العرب، مادة (طرف).

5 - صاحب القبة والطير: هو سلطان بني سلجوق. انظر: عالم القرون الوسطى في أعين المسلمين، د عبيد الله إبراهيم، ص 189.

6 - "التخبيك: التوثيق، وقد حَبَكْتُ العقدة أي وثقتها"، و"العنان: اللجام". لسان العرب، مادتا (حبك)، و(عنن).

7 - لأنهم يؤلهون عيسى وأمه مع الله تعالى.

8 - "اللمة: شعر الرأس بالكسر إذا كان فوق الوفرة". لسان العرب، مادة (لمم).

9 - جاءت في المخطوط على الشكل التالي معجمة بلا نقاط: **لاستسقى لمحبل لاراك**. مخطوط مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، 3/ اللوحة 110 يسار.

10 - السؤم أن تُجَبِّمَ إنساناً مشقة أو سوءاً أو ظلاماً". لسان العرب، مادة (سوم).

11 - شام السحاب والبرق شيماً: نظر إليه أين يُقصدُ وأين يُمطر". المصدر نفسه، مادة (شيم).

12 - "خَطَمْتُ البعير: إذا كَوَيْتَهُ خطأً من الأنف إلى أحد خديه". المصدر نفسه، مادة (خطم).

13 - "ويقال للحمامة ورفقاء". المصدر نفسه، مادة (ورق).

14 - "الجبرة والخبرة: ضرب من برود اليمن منمّر، والجمع جبر". المصدر نفسه، مادة (جبر).

15 - "النَّجْوَى والنَّجِيُّ: البَرُّ، والنَّجْوُ: البَرُّ بين اثنين". المصدر نفسه، مادة (نجا).

أطواقها من الحلي، يعجب ثوبها السندسي، ونباتها المتعلق بذيل النهار سجاجها القندسي¹، فلا تجول في أرضها إلا على أرائك ولا ينظر إلا نساء كالخور العين، وولداناً كالملائك".

الطابع الجغرافي للنص: تكلم العمري على جغرافيا مملكة الأتراك بالروم، فذكر موقعها الجغرافي، ووصف حدودها، وتحدث عن امتدادها الجغرافي، ثم انتقل إلى التعريف بسلاطينها، فسرد طائفة من أخبارهم، وتحدث عن ملكهم وقوتهم، وثرانهم، وتحدث بعد ذلك عن مناخ بلادهم، وأحوال الزراعة فيها، وذكر خصوبة أراضيهم، وكثرة الهطولات في بلادهم، وانتشار الجنان فيها، وجمال أهاليها، إلى غير ذلك من المعلومات الجغرافية التي اعتاد علماء الجغرافية على ذكرها، فحقق الغاية النفعية من النص، وأدى التأليف على أحسن ما يرام من عالم جغرافي.

الطابع الأدبي للنص: إلا أنه نقل هذه المعلومات بلغة أدبية عالية، وحشدها بطيف من ألوان البلاغة والبديع وفقاً لذوق أهل عصره، فبنى تأليفه بأسلوب مسجوع، وجانس بين كلماته، وشاه بالطباقات، وعطره بالاقتراسات الكريمة: -فجانس بين "الطرف-الطرف"، "الخير-الطير"، "محفوظة-ملحوظة"، "مكسر-أكاسرة"، "محتبك-مشتبك"، "أعنة-أسنة"، "الشام-احتشام"، "شبابه-قياه"، "يسام-يشام"، "بديع-ربيع"، "صناعة-صنعا"، "الخلي-الحلي"، "أرائك-ملائك"، "بلاد-تلاد"، "ورق-ورق". -وطابق بين "الطارف-التلاد"، "عليا-دنيا"، "شبابه-أشيب"، "تخصب-محل".

-وكنى بقوله: "يزل الطرف عن سهواتها" عن كثرة محاسنها، أي لا يستطيع الطرف أن يتوقف، بل يجول في محاسنها الكثيرة، وكنى أيضاً عن جمالها بقوله: "محررها من صناعة صنعا الربيع"، أي إنها بلاد جميلة تشبه البرود اليمانية

-واقتبس قوله: "فلا تجول في أرضها إلا على أرائك ولا ينظر إلا نساء كالخور العين، وولداناً كالملائك" من قوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْسُونَةٍ مِّمَّا يَتَخَبَّزُونَ ﴿١٥﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مَّخْلُودُونَ ﴿١٦﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَنْبَارٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٧﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿١٨﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿١٩﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٠﴾ وَخُورٍ عَيْنٍ ﴿٢١﴾﴾ سورة الواقعة، الآيات 15 -22.

-واقتبس قوله: "ويخصف ورق الجنة" من قوله تعالى: ﴿وَوَطِّقْنَا يَحْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ سورة طه، الآية 121.

وبذلك يكون العمري قد أدى التأليف العلمي بأسلوب أدبي شائق، فقدم لنا العلم النافع بأسلوب ماتع.

أقوال علماء الجغرافية في التأليف الجغرافي عند العمري

تنبه الجغرافيون إلى مسالك الأبصار، وعرفوا مكانتها في المكتبة العربية، وقد ذكر بعض العلماء العرب والأجانب جانباً من الصفات التي تميز بها التأليف الجغرافي عند العمري:

- فقد بين الباحث عبد الرحمن حميدة بعد دراسة القسم المتعلق بالجغرافية في مسالك الأبصار أن قسماً من مسالك الأبصار قد اختص بوصف الأمكنة الجغرافية والأبنية والمعابد الشهيرة في الأوساط المتقنة في المشرق، ورأى أن هذا القسم من أكثر الأقسام ميلاً للأدب في كتاب العمري، ثم نقل ما جاء في المسالك عن دير صباعي²: "وهو على شاطئ دجلة الشرقي، فوق تكريت بقليل، وهو كثير الرهبان. وله مزارع وجنينات، ولرهبانه يسار وغنى، وفيه يقول بعض لصوص بني شيبان: [من الوافر]

ألا يا ربِّ سلِّم دير صباعي	وزد رهبان هيكله اجتماعا
فكم جنناه أمواتا سغاباً	ورحنا منه أحياء شباعا
فيا للقصف ما أسرى نبيدا	ألدُّ طلاً وأحسنه شعاعا
لنعمة ومنته علينا	عمزناه وخرنبا الصياعا".

¹ - "الْقُنْدُسُ فِي الْعَرَبِيَّةِ هُوَ: نَوْعٌ مِنَ الْفُرِّ يَتَّخِذُ مِنْ حَيَوَانَ بَرِّ بَحْرِيٍّ مَعْرُوفٍ...وَتَلْبَسُ فِرَاءَهُ الْأُرُومَ عَلَى رُؤُوسِهَا". المعجم العربي لأسماء الملابس، د. رجب عبد الجواد إبراهيم، مادة (قندس).

² - انظر: أعلام الجغرافيين العرب، ص557، مسالك الأبصار 1/345.

وكلامه هذا مجانبٌ للصواب، فلو اطلع على المسالك كاملةً لأدرك أن قسم تراجم الشعراء هو أكثر الأجزاء ميلاً إلى الأدب، فقد ترجم العمري فيه لشعراء كلِّ العصور، بدءاً من الجاهلية، ووصولاً حتى زمانه عبر ستة أسفار، وقد شكلت اختياراًه لبعض الشعراء ما يصلح لأن يكون كتاباً صغيرة ذات قيمة أدبية عالية، فقد ترجم للسراج الوراق¹ مثلاً في مئة وإحدى وسبعين صفحة، شغلت أكثر من نصف السِّفر التَّاسِعِ عشر، وشكلت ملخصاً لديوانه².

- ودرس المستشرق كراتشكوفسكي³ القسم الجغرافي من مسالك الأبصار وخرج بنتائج عدة منها:

1- إن موسوعة العمري تعادل موسوعة النويري من حيث الضخامة، إلا أن مضمونها أضيّق بكثير من مضمون موسوعة النويري، إذ تقتصر مادتها على الجغرافية والتاريخ وحدهما، وينعكس هذا في العنوان⁴.

إلا أن كراتشكوفسكي عاد في نهاية كلامه وذكر أبواب الكتاب وفصوله التي تتكلم على طوائف العلماء والتراجم والطبيعة والحيوان والنبات وغير ذلك، وهذا يناقض تخصيص الكتاب بالجغرافية والتاريخ، فالقسم الثاني من المسالك يتحدث عن الأدب والديانات والعلوم الطبيعية (الحيوان والنبات والمعادن والأحجار)، والتاريخ، لكن الباحث نقل أقسام الكتاب من الخطبة التي افتتح بها العمري كتابه⁵، وخرج برأيه، من دون أن يطلع على القسم الثاني من المسالك.

2- إن النوع الأول في الممالك يبدو وكأنه يمثل مرحلة انتقالية، فإنه يحوي مفاخرة بين المشرق والمغرب تمس الطبيعة والحيوان بل طوائف العلماء مما يذكرنا بعض الشيء بالنمط القديم في "الفضائل"، أي مزاي البلدان والأشياء المختلفة، ولو أنه يصوغه بالطبع في صورة مختصرة وفي قالب أدبي⁶.

ورأيه هذا يشي بأنه اطلع على العنونات اطلاقاً، ولم يتخصص هذا النوع بتمعن، وهو معذور في هذا؛ لضخامة هذا النوع، ولأنه معني بالتأليف الجغرافي أكثر.

3- كون كراتشكوفسكي فكرة عن هدف العمري الأساسي من تأليف هذا الكتاب، وهو أن يضع موسوعة تاريخية جغرافية جامعة لا تقوم على أساس علمي صرف، بل على أساس أدبي عريض⁷، ورأى أنه رجل نقالة، جامع لسنوف العلوم، وموسوعي، لكنه يتميز بالقليل من الأصالة، وهو يعوض هذا النقص باطلاعه الواسع، فقد هيأ له عمله الحكومي الاطلاع على الوثائق، كما أن مصادر أخباره ومعلوماته متعددة للغاية، ما مكّنه من إخراج لوحة مفصلة في وصف العالم المعاصر له.

وفي كلامه شيء كثير من الصحة؛ فمن اطلع على ما في موسوعة العمري، وقرأها بفهم وتمعن أيقن أن العمري كان يلجأ في كل علم يتناوله إلى رأس هذا العلم من أهل زمانه، وأدق ما صنف في بابيه من الكتب، فضلاً عن أنه كان يدون كل ما يسمع من سفراء البلاد الذين كانوا يردون على ديوان الإنشاء، وممن يجتمع بهم من العلماء والأدباء القادمين إلى البلاد؛ لذا فموسوعته غنية بالأخبار التي تفرّد بها.

- أما العالم بول كازانوف⁸ فقد قارن بين وصف المقرزي لقلعة الجبل ووصف العمري لها¹، وخرج بنتائج عدة، منها:

¹ - هو عمر بن محمد بن حسن، الشاعر المشهور والأديب المنكور؛ ملكت ديوان شعره، وهو في سبعة أجزاء كبار ضخمة بخطه، كان حسن التخيل جيد المقاصد صحيح المعاني عذب التركيب، قاعد التورية والاستخدام، عارف بالبدیع وأنواعه. انظر: فوات الوفيات 140/3 (379).

² - انظر: مسالك الأبصار 181-11/19 (568).

³ - وهو أغناطيوس يوليانوفيتش كراتشكوفسكي (ت: 1951م): مستشرق روسي عالم بالأدب العربية ولاسيما الجغرافيا، كان عضواً في الجمعية الجغرافية الروسية ونائباً لرئيسها. انظر: تاريخ الأدب الجغرافي العربي (المقدمة) 1/1-5.

⁴ - المرجع نفسه 411/1-412.

⁵ - انظر: مسالك الأبصار 107/1-118.

⁶ - انظر: تاريخ الأدب الجغرافي العربي 412/1.

⁷ - المرجع نفسه 413/1.

⁸ - وهو أحد أعلام مدرسة الاستشراق الفرنسية التي وجهت جهودها نحو الدراسة التاريخية والأثرية لعواصم مصر الإسلامية، باستخراج النصوص التاريخية الخاصة بالمعالم الأثرية من المصادر المعاصرة، ثم تطبيقها على الطبيعة في ضوء ما بقي من أطلال؛ لإحياء معالمها الكاملة في مراحل ازدهارها. انظر: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، بول كازانوف (المقدمة) ص 1.

- يعود الفضل للعمري في حفظ معالم بعض العماير التي اندثرت، وكان قد وصفها بدقة²، وقد اتسم وصف العمري للقلعة بالدقة والأصالة، لأنه وصفها من وحي معاشته لها بحكم عمله في ديوان الإنشاء وملازمته لها في أثناء عمله مع ابن قلاوون، وقد أخذ كثير من العلماء عن العمري، بمن فيهم المقرئ الذي أخذ عنه أكثر عباراته وضوحاً، ونقل عنه كلمة كلمة مع إغفال نسبة الكلام إليه، وقد بدأ الاضطراب واضحاً في عبارة المقرئ³.

وهذا يدعو للاستغراب لأن المقرئ ابن مصر الذي نشأ فيها، والعمري ابن دمشق وقد عمل في القاهرة مدة طويلة من الزمن في خدمة ابن قلاوون، لكن العمري نقل وصفه مما رآه، وعابنه بدقة، أما المقرئ فقد نقل وصفه من الكتب.

الخاتمة:

انقسم التأليف الجغرافي عند العمري قسمين، القسم النقلي، وهو القسم الأكبر، جمعه من بطون الكتب، وأفواه الرجال، وقد أكثر العمري من النقل النصي عن هؤلاء وقلما تصرف بالعبارة أو نقل معلومة بلغته وأسلوبه، أمّا القسم الثاني فهو القسم الذي صب فيه علمه، وما خبره عن الجغرافية بلغته وأسلوبه.

- حافظ العمري على الغاية التأليفية، فنقل المعلومات الجغرافية بدقة وأمانة، إلا أنه نقلها بلغة أدبية عالية.

- وشى بعض نصوصه الجغرافية بطيف من ألوان البلاغة والبديع، ولونها بالصور والأخيلة.

- كثف من حضور النصوص القرآنية في تأليفه، مشيراً إليها تارة، ومقتبساً بعض معانيها تارة أخرى، وجعل النص القرآني مصدراً أساسياً وحيوياً لمناقشة القضايا الجغرافية.

- تباينت لغته في تأليفه بين العلمية الدقيقة والأدبية المعبرة.

- اتسمت ترجمته لبعض الأماكن بالجفاف التام، في حين ترجم للأماكن التي عاينها بنفسه بلغة أدبية رفيعة، وربما أضاف لها قصصاً جرت معه، وأشعاراً قالها فيها.

- وشى بعض ترجمته بأشعار قيلت فيها.

- قدم العمري للمكتبة العربية أدباً جغرافياً، أو جغرافية أدبية، وذلك موافقة لروح عصره الذي دُونت فيه العلوم بلغة مزينة.

- ثمن علماء الجغرافية العرب والأجانب الجهد الذي قام به في تأليفه، وأثنوا على ما جاء فيه.

وبهذا يكون العمري قد قدم تأليفاً جغرافياً نافعاً ممتعاً، واستحق لقب العالم الأديب.

¹ - فصل القول في قلعة الجبل. انظر: مسالك الأبصار 3/ 330-334.

2 - انظر: تاريخ ووصف قلعة القاهرة ص116.

3 - انظر: المرجع نفسه 148-149.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. إبراهيم، د. رجب عبد الجواد، المعجم العربي لأسماء الملابس (في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث)، ط1، القاهرة مصر، دار الآفاق العربية، مجلد واحد (2002م).
3. إبراهيم، د عبيد الله، عالم القرون الوسطى في أعين المسلمين، بيروت لبنان، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مجلد واحد (2007م).
4. ابن تغري بردي، يوسف، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح: د. محمد محمد أمين، القاهرة مصر، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 7 أجزاء (1984م).
5. حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تح: محمد شرف الدين بالتقيا ورفعت بيلكه الكليسي، بيروت لبنان، دار إحياء التراث العربي، مجلدان (1941م).
6. الحموي، ياقوت، معجم البلدان، بيروت لبنان، دار صادر، 5 مجلدات، (1977م).
7. حميدة، د. عبد الرحمن، أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، دمشق سورية، المطبعة العلمية، مجلد واحد (1995م).
8. دوزي، رينهارت، تكملة المعاجم العربية، تر: د. محمد سليم النعيمي، ط1، بغداد العراق، دار الحرية للطباعة، 11 مجلداً (1980م).
9. ديوان المتنبي (اللامع العزيمي في شرح ديوان المتنبي)، أبو العلاء المعري تح: محمد سعيد المولوي، ط1، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 3 أجزاء متتالية الأرقام (2008م).
10. السخاوي، شمس الدين، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط1، بيروت لبنان، دار الجيل، 12 مجلداً، (1992م).
11. الصفدي، صلاح الدين، أعيان العصر وأعوان النصر، تح: د. علي أبو زيد وآخرين، ط1، دمشق سورية، بيروت لبنان، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، 6 مجلدات والأخير للفهارس (1998م).
12. الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط1، بيروت لبنان، دار إحياء التراث العربي، 29 مجلداً (2000م).
13. العسقلاني، ابن حجر، الدُررُ الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تح: د. سالم الكرنكوي الألماني، بيروت لبنان، دار الجيل (1993م).
14. العمري، أحمد ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: كامل سلمان الجبوري ومهدي النجم، ط1، بيروت لبنان، دار الكتب العلمية، 27 مجلداً (2010م).
15. ج1-تح: أحمد زكي باشا، ط1، مصر، دار الكتب المصرية، 1924م.
16. الفاكهاني، محمد بن العباس المكي، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تح: د. عبد الملك عبد الله دهيش، ط2، بيروت لبنان دار خضر، 6 أجزاء 3 مجلدات (1414هـ).
17. القلقشندي، أحمد بن علي، صُبْحُ الأَعْشَى في صناعة الإنشاء، 15 مجلداً الأخير للفهارس، ط1، مصر، مطبعة دار الكتب الخديوية، (1914م).
18. القفطي، جمال الدين يوسف، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، عني بتصحيحه: محمد أمين الخانجي الكتبي، محافظة مصر، مطبعة السعادة، 1326هـ.
19. كازانوف، بول، تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ترجمته وتقديم د. أحمد دراج، القاهرة مصر، المكتبة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مجلد واحد (1974م).

20. الكتبي، محمد بن شاكر، فَوَائِدُ الْوَقَايَاتِ، تح: د. إحسان عباس، ط1، بيروت لبنان، دار صادر، 5 مجلدات (الخامس للفهارس) (1973م).
21. ابن كثير الدمشقي، إسماعيل بن عمر، مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، طبعة خاصة، دمشق، دار النمير، 3 مجلدات (1989م).
22. كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليا نوفيتش (MOSKOVA-LENINORAD 1957)، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مجلدان (1963 م).
- أ- المقرئ، تقي الدين، المُقَفَّى الكَبِيرُ، تح: محمد اليعلاوي، ط1، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 8 مجلدات الأخير للفهارس (1991م).
- ب- ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، ط3، بيروت لبنان، دار صادر، 15 مجلداً (1414هـ).
- ت- المهلبي، الحسن بن أحمد (2006م)، الكتاب العزيزي (المسالك والممالك)، تح: تيسير خلف، ط1، دمشق، التكوين للطباعة والنشر، مجلد واحد.

المخطوطات:

- العمري، أحمد ابن فضل الله، مخطوط مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، فرنسا، مكتبة باريس، الرقم (2325)، الناسخ: محمد السعودي، 232 لوحة.